كتاب الاستبصار
في عجائب الامصار

نشر وتعليق
الدكتور سعد زغلول عبد الحميد

مقدمة

لسنا أول من يعنى بكتاب الاستبصار. فمنذ حوالى قرن نشر ألفرد فون كرمر الجزء الخاص منه بالمغرب نقلا عن مخطوط كان فى حوزته [١]. ولكن هذه النشرة غير كاملة: إذ تنقصها الفصول الخاصة ببلاد غُمارة، واستقرار الأدارسة بالمغرب، وزندقة برغواطة، ومدينة سجلماسة، وبداية العبيديين الفواطم، ومدن درعة وأغمات ونفيس وتينملل ومراكش، وكذلك الفصول الخاصة ببلاد السوس المتاخمة للسودان (دون ذكر بلاد السودان نفسها). وإلى جانب ذلك فإن نشرة فون كرمر تحتوى هنا وهناك على بعض النقص مما كبر حجمه أو صغر. وبعد ذلك بحوالى خمسين عاما نشر ا. فانيان ترجمة فرنسية كاملة لهذا الجزء نفسه مصحوبة بهوامش وتعليقات، واستخدم طبعة فون كرمر، ومخطوطى الجزائر، ومخطوط باريز [٢]. ومع أن فانيان عمل فى ترجمته على تكملة نشرة فون كرمر وسد الثغرات التى كانت بها إلا أن ما قام به لا يغنى عن النص العربى، ولا يرضي حاجة المشتغلين بالدراسات العربية.

هذا إلى جانب أن الجزء الذى بقي من الكتاب دون نشر كبير ومهم، يبلغ حوالى نصف النص العربى الكامل. وهو ينقسم على قسمين: الأول ويبلغ الثلث خاص بالأماكن المقدسة فى مكة والمدينة؛ والثانى خاص بمصر وعجائبها.

وهكذا تحدد عملنا ... الذى يهدف إلى إكمال ما قام به كرمر وفانيان — فى نشر النص الكامل لكتاب الاستبصار، ثم ترجمة الجزء الخاص بالأماكن المقدسة ومصر إلى الفرنسية.

---

(١) Alfred Von Kremer, Kitab al - Istibsar fi 'Aja'ib al - Amsar : Description de l'Afrique par un géographe arabe anonyme du VI^e siècle de l'Hégire, Vienne, 1852.

(٢) E. Fagnan, L'Afrique septentrionale au XII^e siècle de notre ère: Extrait du recueil des notices et mémoires de la société archéologique de Constantine, 1900

(ب)

المؤلف :

ومما يدعو إلى الأسف أننا نجهل مؤلف كتاب الاستبصار . فباستثناء ابن أبي زرع ، صاحب كتاب روض القرطاس ، الذى يذكر عنوان الكتاب [1] لم يشر أى كاتب آخر إلى الكتاب أو إلى مؤلفه . هذا كما أن المؤلف لا يمدنا خلال كتابته بأية معلومات تكشف لنا عن شخصيته . وهنا نجد ثلاث كلمات تعبر عنه وهي : " المؤلف " أى صاحب الكتاب ، " والناظر " ثم " الواضع " ولها معنى كلمة المؤلف . وعلى ذلك فسنكتفى بالعناية بكلمتى " المؤلف " و " الناظر " . هل تعنى الكلمتان شخصية واحدة أو شخصيتين مختلفتين ؟ يمكن أن تكون كلمة الناظر لقبا كان يحمله المؤلف وبهذا تدل " المؤلف " و " الناظر " على شخص واحد . ولكن هذا الافتراض غير محتمل إذ لا نعرف " الناظر " لقبا فى تلك الفترة . وقد يكون معنى كلمة " الناظر " قريبا من معنى كلمة " المراجع " أى الذى أعاد النظر فى الكتاب ونظمه وأعطاه شكله الأخير . وهنا تعنى كلمة الناظر شخصا آخر غير المؤلف . وهذا ما تؤيده الفقرة التالية التى تختم الكتاب (ص٢٢٦) : " قال الناظر : هنا انتهى ما وجدته من هذا الموضوع ، ولقد أحسن واضعه ورتب ما حقق ، وهذا لعمرى أقرب وأخصر من غيره ، ففيه ما فى غيره وليس فى غيره ما فيه . وحققت وطرزت كتاب الواضع بما قيدت فى هذه المواضع ، وأنا مؤمل أن أتفرغ لوضع كتاب كامل يحتوى على ذكر بلاد المغرب وممالكها إلى هذه الايام السعيدة الإمامية ، وأضيف إليها ما رفعته للحضرة العلية من مفاخر هذا الأمر العالى — أيد الله دوامه — سنة ٨٠ [٥] [= ١١٨٤ — ١١٨٥] ، وهو ما يزيد عندى من فتوحاته المستأصلة لشأفة الأعداء ... " .

---

(١) يذكر ابن أبي زرع كتاب الاستبصار عندما ينقل عنه جزءا خاصا بمدينة فاس (أنظر روض القرطاس ، ص ٢٤) . ولما كان هذا الجزء لا يوجد فى الكتاب كما هو بين أيدينا اليوم فإن هذا يدعو إلى الظن أن كتاب الاستبصار إما أن يكون قد وصلنا ناقصاً أو مختصرا .

وأيا ما كان فإنا نعتبر "الناظر" هو المؤلف الحقيقي للكتاب بصورته التي وصلتنا ؛ فهو قد لجأ إلى كتاب قديم نجهل صاحبه ، فوضع له المقدمة ، ورتب فيها منهجه (من وصف الأماكن المقدسة ومصر وبلاد المغرب) ، وهو قد نقح الأصل وحققه وأضاف إليه ، ثم ختمه . وهو يعد بإخراج كتاب خاص بتاريخ المغرب إلى أيامه . وفي الكتاب فقرات تبين أن الناظر عاش على عهد يعقوب المنصور الموحدي ، وأنه كان ينظر بعين الولاء لأحد كبار رجال الدولة حينئذ وهو الشيخ أبو عمران بن أبي يحيى بن وقتين الذي يهدي إليه الكتاب ويطلب منه حسن الرعاية (ص ١، ٢) . ويظهر أنه كان يصنف الكتاب في سنة ٥٨٧ (١١٩١) كما يفهم من بعض إشاراته (ص ١٣٨) ، وخاصة بمناسبة سفارة ابن منقذ رسول صلاح الدين إلى الخليفة المغربي (ص ١٠٧) ؛ وبمناسبة العمليات الحربية ضد بني غانية بإفريقية (ص ١١١) . ولكنه يتضح أيضا أن الكتاب كان موضع تنقيحات تالية بالنسبة لهذا التاريخ ؛ والمثل لذلك زيارة ابن منقذ . فبهذه المناسبة يعود صاحب الكتاب ، بعد أن يذكر أنه كتب ذلك في رمضان سنة ٥٨٧ (سبتمبر – اكتوبر ١١٩١) ، فيقول إن رسول صلاح الدين ترك العاصمة المغربية في ١١ من المحرم سنة ٥٨٨ (٢٨ من يناير ١١٩٢) .

هذا وتدل التفصيلات التي يمدنا بها عن مكناسة وفاس ومراكش على معلوماته الغزيرة عن هذه المدن . فلا شك أنه عاش فيها إن لم يكن أصله منها ؛ فهو لا يكتفي بالوصف الدقيق للعواصم المغربية بأمبراطورية الموحدين على عهده ، ولا بالأعمال الإنشائية التي تمت على عهد يعقوب وسلفيه ، بل يقترح خططا عمرانية أخرى تهدف إلى نشر الرخاء في هذه المناطق .

وزيادة على ذلك فإن المعلومات التي يعطيها عن الحملة العسكرية ضد بني غانية في إفريقية تتفق بشكل غريب مع إحدى الرسائل الرسمية الصادرة من ديوان يعقوب المنصور ، والتي يقتطف منها بعض الفقرات (ص ١٥٩ وهامش ١) . وهو عندما يتكلم عن بلاد السودان يقول إنه اطلع على الرسائل

الرسمية الصادرة باسم غانة ملك أحد هذه البلاد إلى يوسف بن تاشفين (ص ٢١٩)؛ ومعنى هذا أن سجلات المرابطين القديمة كانت فى متناول يده ؛ أو وصلت إليه صور منها على الأقل .

من كل ذلك يمكننا أن نفترض أن المؤلف " الناظر " كان يشغل وظيفة لدى يعقوب المنصور كانت تمكنه من الاطلاع على مجرى الأمور فى ديوان الخليفة أو فى بلاطه . وهنا يمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنظن أنه ربما كان صاحب الرسالة الرسمية نفسه أى ابن مَحْشَرة [1] . يؤيد ذلك ما يظهره المؤلف من آيات الولاء والخضوع للخليفة وسلفيه ، ذلك الولاء الذى لايصدر إلا من خادم مخلص للموحدين .

الكتاب :

إن النظرة السريعة إلى كتاب الاستبصار تبين أن موضعه بين كتب المكتبة الجغرافية العربية . ورغم ذلك فإنه من الصعب وضعه فى موضعه الصحيح بين أصناف الكتب الجغرافية المعروفة : من كتب الأطوال والعروض ، وكتب تقويم البلدان ، وكتب المسالك والممالك ، أوكتب العجائب [2] . والحقيقة أننا لو أخذنا بعنوان الكتاب ، وهو « كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار » لوجب وضعه بين كتب المجموعة الأخيرة . ولكن الأمر ليس كذلك ؛ إذ هو ليس كتاب جغرافية خالصة . فرغم تاريخ تأليفه المتأخر نسبيا نلاحظ أنه يحتوى على خليط من التاريخ والجغرافية من كل لون ، مما يجعله أشبه مايكون بكتب الجغرافية من النوع البدائى الأول .

فمن وجهة النظر الجغرافية — ولهذا السبب وحده — يمكن أن يقال بشكل عام إن الكتاب ليس من كتب الجغرافية العلمية المبتكرة ، فهو غير مخصص

---

(١) أبو الفضل جعفر بن محمد بن على بن طاهر بن تميم القيسى المعروف بابن محشرة (٥٤١ – ٥٩٨/١١٤٦ – ١٢٠١) . أنظر E. Lévi - Provençal, un recueil de lettres officielles almohades, étude. p. 9 et note 22.

(٢) أنظر R. Blachère, Extraits des géographes arabes , Paris, 1932 ؛ سعد زغلول عبد الحميد ، ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة ، مجلة كلية آداب الاسكندرية ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٩١

لعجائب البلدان ، كما يمكن أن نتوقع ، وإنما هو مصنف يحوى معلومات دقيقة وأخباراً عامة وأساطير طريفة ، جمعت بعضها إلى جانب بعض بغرض تقديم وصف سهل لطيف مستساغ للقارئ لا تثقله الدقة العلمية المتعبة والتى لا تهم سوى الإخصائيين .

المصادر :

إن مما يعين على معرفة المصادر المختلفة التى أخذ عنها المؤلف معلوماته أن نأخذ بعين الاعتبار أن الكتاب ينقسم إلى ثلاثة أقسام مختلفة هى : الأماكن المقدسة ومصر وبلاد المغرب .

والجزء الأول عبارة عن وصف مكة والمدينة ، والهدف منه هو تصوير شعائر الحج . والمؤلف يُعنى فيه بوصف مكة عناية بالغة ، فهو يعدد ضواحيها وتلالها ، والجبال المحيطة بها . ثم هو يصف بكل دقة الكعبة ومقاييسها وبابها والحجر الأسود بها . ثم هو يستطرد فى وصف المسجد الحرام ، ويصف بئر زمزم ؛ وهو خلال ذلك يشرح مناسك الحج . وإلى جانب هذا يصف المساجد الأخرى مثل مسجد الخَيْف ومسجد المُزْدَلفة . وفيما يتعلق بالمدينة يستطرد المؤلف بنفس الشكل عند الكلام عن مسجد النبى وقبره المبجل ، ومسجد قُبا ؛ وينهى وصفه بالكلام عن قبور الشهداء فى سفح جبل أُحد .

وهذا الجزء عظيم الأهمية نظرا لمعلوماته الدقيقة وطريقته العلمية ؛ ولكننا لانعرف من أى المصادر استقيت مادته . فالمعلومات التى يمدنا بها عن مكة مختلفة عن معلومات الأزرقى (القرن الثالث الهجرى = ٩ م) التى ينقلها ابن رُسْته (نهاية القرن الثالث = ٩ م) ، وهى تختلف كذلك عن معلومات ابن جُبَيْر المعاصر لمؤلف الاستبصار ؛ والمعروف أن ماكتبه الأزرقى وابن جبير يعتبر أهم ماكتب عن مكة والكعبة وأكثره أصالة . وهنا نجد أن المؤلف لايدين بشئ لهذين الكاتبين . ويمكن بعد هذا أن نفترض أنه نقل عن البكرى الذى كتب فى سنة ١٠٦٧/٤٦٠ كتابه المعروف بالمسالك والممالك . والحقيقة أن كتاب البكرى هو المصدر الرئيسى لصاحب الاستبصار

بالنسبة للجزء الخاص بمصر والمغرب ، ولكن ضاعت من كتاب البكرى الفصول الخاصة بالأماكن المقدسة ؛ وهكذا فلا سبيل إلى القول بأن صاحب الاستبصار نقل هذا الجزء أو شيئا منه عن البكرى أو لم يفعل . وفيما يتعلق بوصف المدينة ومسجد النبي لانعرف أيضا المصدر الذى أخذ عنه الاستبصار ، ومعلوماته تختلف عما كتبه ابن رسته وابن جبير . وهنا نجد أن المؤلف يقول إنه فى سنة ١١٣٣/٥٢٨ — ١١٣٤ كان يوجد فى رواق المسجد وطاء طبرى (ص ٤١) . وهذا يحملنا على الظن أن الجزء الأول من الاستبصار نقله مؤلفه سنة ١١٩١/٥٨٧ عن مصدر لم يصل إلينا كتب سنة ٥٢٨ أو بعد ذلك .

أما الجزء الثانى من كتاب الاستبصار فيوضع بصفة عامة ضمن ما كتب عن عجائب العالم : فكل مايحويه عبارة عن غرائب وأشياء مدهشه فريدة فى نوعها . وزيادة على ذلك نلاحظ أن خطة الفصول الخاصة بمصر تنقسم إلى فترتين : فترة مصر القديمة ، التى تنقسم بدورها إلى فترتين يفصل بينهما الطوفان ؛ ثم فترة مصر الحديثة أى العربية . وتبدأ الفترة الأولى بوصف عام للبلاد ، وتنتهى بظهور الإسلام وفتح مصر على أيدى العرب . والفترة الثانية خاصة بوصف المدن المصرية ، وتبدأ بقصة الفتح منقولة عن ابن عبد الحكم . والحقيقة أن هذه التقسيمات ليست مقبولة إلا بصفة عامة ، وذلك أن المعلومات الجغرافية والتاريخية ، القديمة منها والحديثة ، تختلط وتتداخل خلال التقسيمات الصغيرة بعد ذلك بشكل لايدع مجالا للتفرقة بينها .

والمؤلف يستخدم فى تصنيفه لهذه الفصول خمسة مصادر مختلفة يذكرها فى بعض الأحيان ، وهى : المسعودى (توفى ٩٥٦/٣٤٥) ؛ وابن وصيف — شاه الذى يظن أنه فارسى الأصل وأنه كان يسكن بلدة اخميم ، الذى يكتب حوالى سنة ١٠٠٠ للميلاد (أواخر القرن الرابع الهجرى) (ص ٦٠ هامش ٢) ، وكان عالما بتاريخ مصر القديمة — حسب مفهوم ذلك التاريخ فى العصور الوسطى بطبيعة الحال ؛ وابن عبد الحكم ؛ ثم البكرى . وأخيراً هناك معلومات الناظر الشخصية وهى تتعلق فى معظم الأحيان بالأحداث التى عاصرها ، وهو فى كل مرة يسبقها بكلمتى : " قال الناظر " . والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو :

هل أخذ المؤلف معلوماته مباشرة عن المصادر التى يذكرها ؟ هنا نلاحظ أن القطع الباقية من كتاب البكرى والخاصة بمصر (مخطوط المكتبة الوطنية بباريز ، القسم العربى ، رقم ٢٢١٨) تشبه بشكل واضح ، من حيث الخطة ومن حيث التفصيلات ، الفصول المماثلة من الاستبصار . وهذا يجعلنا نعتقد أن صاحب الاستبصار نقل عن كتاب البكرى معلوماته التى أخذها عن المسعودى وابن وصيف — شاه وابن عبد الحكم . وهذه الملاحظة لا تمنع من أن يكون المؤلف قد قرأ هذه الكتب التى كانت شائعة فى عصره ، وأن يكون قد أخذ منها معلومات أضافها إلى ما كتبه البكرى . ورغم أنه لايذكر كتاب الإدريسى فالظاهر أنه تأثر به فى أكثر من موضع . والمؤلف عندما يعالج قصة الفتح العربى لمصر ينقل عن ابن عبد الحكم كما سبق أن نقل البكرى ؛ وفيما يختص بمصر القديمة يذكر ابن وصيف — شاه وينقل عنه . وفى مجال التاريخ القديم هذا لا ننتظر من المؤلف شيئا جديدا ، وذلك على عكس ما كنا ننتظره منه من المعلومات الجديدة عندما يعالج موضوع المدن المصرية ، كما فعل بالنسبة لمدن المغرب ، وهذا ما لم يفعله . فالصليبية فى الشام كانت على أشدها والمدن المصرية كانت مسرحا لعدد من المآسى التى كان لها صداها فى المغرب ولكن المؤلف الذى خصص صفحات — فى آخر هذه الفصول — للصليبية وانتصار صلاح الدين اكتفى بنقل الوصف التقليدى للمدن المصرية كما فعل المسعودى وابن عبد الحكم والبكرى . وأكثر من هذا فإنه يؤخذ عليه أنه كاد يوقع القارئ فى الخطأ عندما أهمل ذكر المصدر الذى نقل عنه ، وغيّر شكله إلى حد ما ذاكراً تاريخ الوقت الذى كان يكتب فيه هو نفسه . والمثال لذلك هو معلومات المسعودى عن مدينتى تنيس ودمياط التى يذكرها صاحب الاستبصار ويختمها بالشكل التالى :

" ويسكن بجزيرة تنيس ودمياط نصارى هم الآن تحت الذمة بحمد الله ، ونحن فى سنة ٨٦ [٥] [= ١١٩٠] " (ص ٨٨) ؛ كما لو أن هذه الحقيقة كانت واقعة على أيامه أو كما لو أنه حققها بنفسه . وهو فى الحقيقة لم يعرف

أن تنيس كانت هدفا لعدد من غارات الصقليين والصليبيين ، وأن أهلها جلوا عنها فى سنة ٥٨٨ [= ١١٩٢] عندما كان يعيد النظر فى تأليفه (هامش ١ ص ٨٨) .

وما أن يترك المؤلف مصر ليعالج بلاد المغرب والسودان حتى يتخلص من آثار الماضى التى تسلطت على نفسه وقلمه ، فهو يسجل ما يشاهده ويعطى وصفا أكثر دقة . وإذا ما راعينا أنه كان مغربيا وبالتالى عارفا بالبلاد التى هى موطنه ، فهمنا بسهولة أن هذا القسم من الكتاب يفوق فى أهميته ما سبقه من الأقسام .

هنا نجد أن المصادر التى يأخذ عنها الكاتب معلوماته والتى يذكرها هى ، المسعودى والبكرى — وهذا الأخير يعتبر المصدر الأول للقسم الثالث من الكتاب خاصة . هذا إلا أن مجهود المؤلف لا ينكر ، فهو ينتهج منهجا خاصا به ، ويعطى معلومات شخصية فى غاية الأهمية ، لاسيما عن إفريقية والمغرب الأقصى .

أهمية الكتاب :

يعتبر الكتاب مصدرا لمعلومات متنوعة الألوان من جغرافية وتاريخية وأثرية . وهو يسهب فى وصف رخاء مصر الزراعى ، الذى يرجع إلى النيل ، ويؤكد بصفة خاصة خصوبة منطقة الفيوم . والفيوم تجذب انتباهه بفضل عمليات المياه فيها ، وهذه تزيد من مزروعاتها وفواكهها . وفيما يتعلق بمنطقة الفرما يذكر أن تمرها يعد من عجائب الدنيا . أما عن معادن الزمرد الواقعة بين مدينة قُوص ومدينة أسوان فهى موضوع خصب لاسترسال قلمه وإسهابه . وهو بعد ذلك يعتنى بصناعة النسيج فى دمياط وتنيس ، حيث كانت تصنع أردية لا تدخل فى نسجها خيوط الذهب ، ويساوى الرداء منها مع ذلك مائة دينار . وكانت حرفة صيد السمان مربحة لأهالى المدينتين . وفى هذا العصر كانت مدينة عيذاب ميناء مهما منه تتجه المراكب نحو الحجاز واليمن والهند وغيرها من البلاد .

وفيما يختص ببلاد المغرب يبين الكتاب الثروة الزراعية والمعدنية لكل مدينة مثل : حرير قابس ، وزيت سَفاقُص الذى يصدر إلى صقلية وإيطاليا وفرنسا (الأرض الكبيرة) ، ومنسوجات سُوسة ، وأسماك بَنْزرْت ، ومرجان طَبَرْقة ، وتمر الواحات وبلاد الجريد ، وذهب البلاد الواقعة بين الواحات ومصر ، وفستق قَفْصة ، وقمح باجة ، وصوف وَجْدة ، ونحاس فاس ، وزيت مِكْناسة وضواحيها ، وجلد اللمط والملح ثم السكر ، بصفة خاصة ، التى اشتهرت بها بلاد السوس ، والتى كانت تصدرها إلى كل بلاد المغرب والأندلس وإفريقية ، وكذلك النحاس المصنوع والعسل والنبيذ والدقيق والعنبر الممتاز . وعندما يتكلم عن بلاد السودان يستطرد فى ذكر الشب الأبيض وحجر المغناطيس .

ومن الناحية التاريخية يحتوى الكتاب على معلومات مختلفة فى طبيعتها ، وفى قيمتها : كالقصص التاريخية القديمة المنقولة عن كتب معروفة أو مفقودة وهى من طبقة الأساطير ذات القيمة الأدبية فقط ؛ ومثل الوثائق التاريخية المعاصرة ذات الأهمية البالغة .

والقسم الأول الذى يصف الأماكن المقدسة بشكل مطول مهم بالنسبة لتاريخ الفن ، ولا سيما إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى ندرة المصادر الخاصة بالآثار ، مما يجعل مهمة مؤرخ الفن من الصعوبة بمكان .

والقسم الخاص بمصر يعطينا فكرة عن الروح التى كانت تسيطر على مفهوم تاريخ مصر القديمة : فكل ما هو قديم ينبغى أن يكون عجيباً دون اعتبار للوثائق الأكيدة الموجودة فى متناول الأيدى . وهكذا قيل إن الرصاص استعمل بدل الملاط فى بناء الأهرام ؛ وكان يكفى النظر فى هذه الآثار للتأكد من أن الأمر ليس كذلك . وترتب على هذه الفكرة أن أصبح الجزء الثانى من الكتاب — على عكس الجزء الأول الجاف — ذا صبغة أدبية بصفة خاصة .

والفصل الخاص بمدينة الإسكندرية مهم جداً ؛ ففيه يصف المؤلف المنار المشهور بإسهاب ، ويبين موقع المدينة من الناحية العسكرية ، وكيف أنها كانت هدفاً لتهديدات الأعداء التقليديين النصارى ، وخاصة الصقليين

منهم . أما عن جهاد صلاح الدين وانتصاره على الصليبيين ، وسفار ابن منقذ إلى المنصور الموحدى ، فقد شغلت عدة صفحات مهمة كنا نأمل لو أنها زادت إلى أكثر من ذلك .

والقسم الأخير الخاص بالمغرب مهم جداً بالنسبة لتاريخ الموحدين . فصاحب الكتاب يندد بمرارة بثورة على بن غانية فى إفريقية ، ويدافع عن موقف سيده الأمير . أما المعلومات المتعلقة بالمغرب الأقصى فهى أصيلة ومهمة للغاية : مثل المجهودات المعمارية التى قام بها أمراء الموحدين الثلاثة الأول ، وخاصة يعقوب منهم : كعمليات المياه ، وبناء المساجد والقصور ، ثم إنشاء الحصون فى مدن مراكش وفاس ومكناسة .

من كل ما تقدم يتبين أن كتاب الاستبصار يعتبر حقيقة موسوعة تاريخية جغرافية مختصرة .

تحقيق النص :

وقد رجعنا فى تحقيق النص إلى مخطوطات ثلاث : واحدة بالمكتبة الوطنية بباريز (القسم العربى رقم ٢٢٢٥) ، وهى بخط مغربى مقروء ، ولكن تنقصها الورقات الأولى والأخيرة ، هذا بالإضافة إلى بعض النقص الذى يوجد فيها من حين لآخر ، واثنتان بالمكتبة الوطنية بمدينة الجزائر : أولاهما (رقم ١٥٦٠) فى حالة جيدة وهى كاملة ؛ والثانية (رقم ٣٢١٦) رغم أنها كاملة ، إلا أنها فى حالة رديئة وذات خط غير مقروء فى بعض الأحوال . وإلى جانب ذلك رجعنا أخيراً إلى طبعة فون كرمر (von kremer) الخاصة بالمغرب والتى نشرها عن مخطوط لا نعرف مصيره ، وهى تحتوى على كثير من النقص .

ولقد رمزنا لمخطوط باريز بالحرف "ب" ولمخطوطى الجزائر — حسب ترتيبهما المذكور — بالحرفين "ج" ، "م" ، ولطبعة كرمر بالحرف "ك" .

وأول مانلاحظه هو أن الأخطاء الإملائية الكثيرة والنحوية فى بعض الأحيان ، وكذلك اختلاف أسماء الأعلام ، تبين أن هذه المخطوطات نقلت فى عصر متأخر بالنسبة للمخطوط الأصلى بمعرفة نساخ لم ينالوا حظا كبيرا من الثقافة . وترتب على ذلك أن اضطررنا إلى الرجوع — فى كثير من الأحيان — إلى المؤلفات القديمة ، ومن ذلك أن جامع " الخَيْف " كتب فى جميع مابين أيدينا من نسخ جامع "الحنيفية " (ص ٣٣ وهامش أ) . ورغم اتساع دائرة عملنا نتيجة لذلك فإننا لاندعى أن النص الذى حققناه قد استقام بشكل كامل لاغبار عليه . فما زالت بعض الكلمات بل وبعض الجمل غير دقيقة أو قليلة الوضوح . وقد صادفتنا عبارات يبدو أنها من مصطلحات العمارة الإسلامية وهى غير محددة المعنى عندنا ، وذلك مثل " بحر مُرَخَّم " (ص ١٤—١٥) أو " حجارة مطرورة " (ص ٣٣ ، ٣٤) . وقد فهمنا هذه العبارات حسب المعنى العام للجملة . وهكذا أخذنا " بحر مرخم " بمعنى فراغ مكسو بالرخام (الترجمة ص ٩) ، " وحجارة مطرورة " بمعنى حجارة مصقولة محددة أو حجارة مطينة مزينة (الترجمة ص ٢٠) . ونذكر كذلك كلمات « ثوران من نحاس » (ص ٢٠) ولقد فهمناها على أنها مسرجتان (شمعدانان) من نحاس (الترجمة ص ١٢) ، وجملة " فنازعنى فى القُرْب والشولى فغلبته (ص ١٨٥) " التى فهمناها على أنها : فتناقشنا فى أمر سمك الدَّنّ والزَجَر ولكننى فزت عليه . ونذكر أخيرا كلمة " ثليث " (ص ٢٠٠) وهى اسم علم لمدينة فى جنوب مراكش قرب سجلماسة ولا نعرف عنها شيئا .

وفيما يختص بالترجمة فقد اجتهدنا فى نقل النص العربى إلى الفرنسية دون تصرف . ولم نخرج عن هذه القاعدة إلا فى الحالات التى يصعب فيها الترجمة الحرفية ، ففى هذه الحالات حاولنا نقل المعنى مع الحرص على عدم الابتعاد عن النص على قدر الإمكان . ولقد لاقينا فى هذا صعوبات كثيرة : كالتباين الخفيف بين مفهوم الكلمات ذات المعنى الواحد ، والصور التى يصعب نقلها كما هى ، والأساليب الخاصة بكل لغة . وعلى الجملة فقد كانت روح كلا اللغتين هى المهددة فى كل هذه الحالات . ويمكن إعطاء أمثلة كثيرة

لتوضيح هذه العقبات ، ودون البحث بعيدا فى أعماق النص يكفى النظر فى الصفحات الأولى من الكتاب ، حيث تكثر أمثلة هذه الصعوبات .

ولقد حرصنا على أن نزود النص بالهوامش المناسبة . والغرض من هذه الهوامش إما تحديد المؤلفات السابقة التى تعتبر من المصادر الرئيسية للنص ، وإما مقارنته بها . ولهذا السبب أيضا ذكرنا فى الهوامش بعض المصنفات المهمة من عصور متأخرة .

تقديم الطبعة المغربية

لما كانت طبعة جامعة الاسكندرية (1958) لكتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وهو الكتاب الذي كان أصلا رسالة ثانوية للدكتوراة التي تقدمنا بها إلى جامعة باريس في يونيه 1951 ، قد نفدت منذ مدة طويلة . ولما كان الدارسون لتاريخ مكة والمدينة ومصر وبلاد السودان الغربي في العصور الاسلامية حتى القرن السادس الهجري / 12م في حاجة الى النظر في هذا الكتاب، فضلا عن حاجة دارسي تاريخ أقطار الشمال الافريقي الاسلامية وجغرافيتها، وهو الأمر الذي تنبه اليه منذ مدة طويلة بعض الزملاء الأفاضل والناشرين في تونس وفي مصر، فإنه يسرني أن تقوم الآن دار النشر المغربية بمدينة الدار البيضاء، مشكورة، بمعرفة مديرها السيد البوري محمد سعيد بإعادة نشر الكتاب في طبعة مغربية جديدة، أرجو أن تكون مفيدة للمشتغلين بالتاريخ الاسلامي وتاريخ الشمال الافريقي - إن شاء الله .

هذا، ولقد قمنا بتصحيح الأخطاء القليلة بطبعة الاسكندرية الأولى، وعلى الله التوفيق .

سعد زغلول عبد الحميد

الكويت في 1985/1/6

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار

الحمد لله عالم الأسرار ، غافر الأضرار ، الواحد القهار ، العزيز الجبار ، المنزه الذى لا يقبض يديه سهاد الليل والنهار ؛ نحمده حمد معترف بوحدانيته ، ونشكره شكر مغترف من بحر نعمته ، متقلب فى ظل رحمته . ونصلى على نبيه سيدنا محمد المبعوث بالآيات الباهرة ، والبينات القاهرة ، الآخذ عن النار بالحجزات ، الداعى إلى سبيل ربه بالآيات البينات ، وعلى آله الأخيار ، وأصحابه الأبرار ، صلاة باقية إلى يوم الدين . ونرضى عن نجله الأطهر (ا) ، وسليله الأبر ، الإمام المهدى[1] ، الذى جدد رسم الدين بعد البلى ، وجاهد فى سبيل الله حق جهاده وأبلى ، وإلى طريق الحق [دعا] النفرى والجفلى ؛ وعن الخلفاء الراشدين ، أئمة الهدى ، ومصابيح من رشد واهتدى . ونوالى الدعاء لخليفتهم المبارك الأسعد ، سيدنا أمير المؤمنين يعقوب[2] بنصر تتصل أسبابه بسعادته ، وفتح يسوقه القدر وفق إرادته .

وبعد ، لما كان العلم أنفس ما يقتنى ، وأشرف ما به يعتنى ، لم يزل ينقله خلف عن سلف ويحمله ذو شرف عن ذى شرف ، وجب أن يكون أفضل ما يهديه مهد أو يستهديه مهدى ، رغبة فى الاتسام برسمه ، والارتسام والدخول

(ا) ج : الأظهار .

(1) المهدى محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين (توفى ٥٢٢ - ٥٢٤ ؟ = ١١٢٨ - ١١٣٠) .

(2) أبو يوسف يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن بن على وثالث خلفاء الموحدين . وملكه من سنة ٥٨٠ الى سنة ٥٩٥ هـ (١١٨٤ - ١١٩٩) .

فى رعيته ، والاستئثار بحيازة مآثر من تواريخ الأمم ، وسير العرب والعجم ، إذ كان المرء يقف منها على أخبار من غبر ، وآثار من ذهب ودثر ، ويشاهد ممالك ذهبت وبادت (ا) ، كأنها عادت إلى الحياة أو كادت :

لم يبق شىء من الدنيا أُسرّ به ... إلا الدفاتر فيها الشعر والخبر
مات الذين لهم فضل ومكرمة ... وفى الدفاتر من أخبارهم أثر

وقديما وضع (ب) الناس التواريخ ورتبوها ، ودونوا الأخبار وكونوها ، حرصا منهم على نظم فرائدها وتقييد شواردها ، وما زال واضعوها يتقلبون بين إكثار وإقلال ، وإسهاب واختصار ، وكلهم يجرى على طريقة إلى غاية يضيفها ويسطرها . وكثيرا ما خلد خدم العقلاء ملوك أزمنتهم بالتواريخ المؤلفة والتواليف المزخرفة ، تفننا لمسراتهم وترضيا لمبراتهم ، ولولا ذلك لم يحصل الأخر على علم الأول ، ولا عرفت أخبار الملل والدول . ولذلك رأيت الشيخ الأجل المعظم ، الأغر الأسنى ، الأمجد المكرم ، أبا (جـ) عمران بن الشيخ الأرفع ، المرحوم أبى يحيى بن وقتين (١) أدام الله علاهم ، ووصل مجدهم وسراهم ، قد أبرز على الفضلاء فضلا ، وأربى على النبلاء نبلا ، وزاد على أهل زمانه فى العلم والحلم ، وغبطة بالعلم ووصل العلماء ومراضاة الفقهاء . وكانت همته السامية إلى طراف الأخبار ، وإيثار أهل الآثار ، إلى أن شادت بذلك الرفاق ، وامتلأت بحديثه الآفاق ، ونازعتنى الرغبة والتصدى لشكر النعمة ، إلى أن أطرز باسمه كتابا يجمع بين الأخبار والصحائف ، ويأخذ بطرفى شرائد الطرائف ، متضمنا بذلك إحسانه ، راجيا بذلك فضله وامتنانه بمنه حسبما أردته . و[لما] اتسق وصفه على ما اخترت ، سميته بكتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، بعد أن قصدت فى أكثره التحقيق واطرحت فى مستودعه التلفيق .

(ا) ج : أبادت . (ب) ج : وضعها . (جـ) ج : أبو .

(١) إننا لا نعرف شيئا عن هذين الشخصين ، ولكن يمكن أن يقال ، من اسميهما ، إنهما من أصل بربرى .

وابتدأت بمكة شرفها الله تعالى، وما يجب ذكره من وصف حرمها ، وأسماء الجبال المحيطة بها ، وذكر أرباضها ، ووصف المسجد الحرام بحسب الوسع ، وذرع الكعبة من خارج، ووصفها من داخل . ووصفت الصفا والمروة ، وعرفة ومُزْدَلِفَة، ومِنًى وجبل الرحمة ، مع شريعة إبراهيم عليه السلام وصفة بطن مُحَسِّر إلى غير ذلك من المناسك، وصفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة . ووصفت منبره عليه السلام ، ووصفت عدد أبواب المسجد ، وجميع ما فيه من العمد (ا) وعدد ما فيه من القناديل ، ووصف روضته عليه السلام . ثم وصفت بقية المدينة ، وروضة عثمان رضى الله عنه ووصفت مسجد قُبَا ، وقبور الشهداء (ب) بأحد رحمة الله عليهم تبركا بذلك وتيمنا بالاستفتاح به :

ثم عدت إلى بلاد مصر وما فيها من العجائب ، ووصفت نيل مصر وعدد أمياله ، من وسطه إلى موقعه ، وذكرت بناء الأهرامات والبرابي (ج) ومن بناها ، وصورتها وطولها وعرضها وما صنع فيها من العجائب ؛ وذكرت من عمرها من الملوك قبل الطوفان وما نزل بها بهذا الطوفان ؛ وذكرت فتحها فى أيام سيدنا عمر (د) بن الخطاب رضى الله عنه . ثم عدت إلى مدينة الإسكندرية ، ووصفت بناءها وصفة منارها وصفة المرآة التى كانت بها وبناءها وتداول الملوك عليها .

ثم ذكرت بلاد إفريقية وما فيها من العجائب ، ووصفت مدينة قرطاجنة وآثارها وعجائبها ، ووصفت البلاد الى آخر بلاد المغرب . وقسمت أقطارها قسمين ، ورتبتها صنفين : فمنها الصحراوية أو ما قاربها ، والساحلية وما يليها .

ولم أذكر شيئا مما سقته إلا ما كاد ينعقد على أكثره الإجماع ، ويتفق عليه العيان والسماع ، وللمولى أدام الله تأييده ووصل سعوده ، أن يقدر عبده فيما أورده ، ويحقق فيما رجاه أمله ومعتمده ، فإنه وإن كان قد أنفذ وسعه فى الاختيار ، وتوسط بين الإقلال والإكثار ، حرى بالاحسان

(ا) ج : العمود . (ب) ج : الشهود . (ج) ج : المارمات والبربرى .
(د) ج : عمار .

ظنا، ويرى التغميض عن هناته سنا ، إذ هو فيما ذكر كمن حمل التمر إلى هجر[1]. ومنك استمدنا كل غريبة ، فأنت غريبة فى عيون الغرائب . وهذا حين أبتدىء بذكر ما أردته فيما أوردته ، مستعينا بالله سبحانه ، راجيا صفحه وغفرانه ، والله سبحانه يمتع الأدب ببقاء المولى ، ويشكره ما منح الخلق من يده وأولى :

الناس يهدون على قدرهم وإننى أهـدى على قدركا
يهدون ما يفنى وأهدى الذى يبقى على الأزمان من فخركا

ذكر حدود حرم مكة شرفها الله [2]

حدّد الحرم من ناحية المدينة من ذى طُوَى [3] على ثلاثة أميال من مكة ، وحده من طريق جُدّة على عشرة أميال ، وحده من طريق اليمن على سبعة أميال ، وحده من طريق العراق على ستة أميال ، وحده من طريق الطائف على أحد عشر ميلا فعدد أميال الحرم ٣٧ ميلا [4] ، ودور الحرم حول مكة ٧٣٣ ميلا [5] ؛ وكان النبى صلعم بنى بالحرمين ١٥ مسجدا [6] .

---

(١) هجر هى مدينة البحرين المشهورة بكثرة تمرها . أنظر أبو الفدا (الجغرافية) ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٣٧ وهامش ٢ ، ٣ ؛ البكرى ، المعجم ، ج ٢ ص ٨٢٥ ، ٨٢٧

(٢) الحرم هو المنطقة المقدسة بمكة . ولكن هذا الإسم يطلق أيضا على أرض المدينة ومن هنا سميت المدينتان الحرمان

(٣) ذو طوى هو أحد أودية مكة على طريق المدينة وفيه توقف النبى عند فتح مكة . أنظر البكرى ، المعجم ، ج ٢ ص ٤٥٧ ؛ الأزرقى ، ص ١٩٧ ، ٤٢٦ ، ٥٠٠ ؛ ابن جبير ، ص ١١٢ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٨٩ — ب ؛ الفاسى ، ص ٨٣

(٤) هذا المقياس لا معنى له وذلك أن المؤلف أضاف طول المسافات التى تبين حدود الحرم فى الاتجاهات المختلفة ، بالنسبة إلى المسجد الحرام ، بعضها إلى بعض .

(٥) هذه المسافة مبالغ فيها من غير شك والظاهر أن الصحيح هو ٧٣ ميلا فقط ، وذلك أن الأرض الحرام تمتد حول مكة مسيرة يوم تقريبا . أنظر أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٠٥ هامش ٥

(٦) أنظر البكرى ، المعجم ، ج ٢ ص ٥٥٩

وصف مكة شرفها الله وأرباضها وأسماء الجبال المحيطة بها

جبل أبي قُبَيْس [1] وهو جبل أدكن (أميل إلى البياض) ، في رأسه منار يذكر أنه منار إبراهيم عليه السلام . وفي أصله الصفا [2] ومن عليه يرقى إليه ، ليس (أ) له مرقى إلا على أربعة مواضع : على الصفا ، وعلى شِعْب عمر ، وعلى شعب علي [3] رضي الله عنهما ، وعلى شِعْب أجياد الصغير [4] ، ليس لأبي قبيس طريق يرقى إليه إلا من هذه الأربعة مواضع . وهو أحد الأَخْشَبَيْن [5] فيما يقال ، ويقال إنه أول جبل خلقه الله تعالى ووضعه في الأرض . وإنما سمي بأبي قبيس لأن رجلا كان يسكنه على قديم الدهر يكنى بأبي قبيس فنسب إليه ذلك الجبل . وهو أقرب الجبال إلى المسجد الحرام ، يقابل من مكة ويقابل من الكعبة الركن الأسود .

(أ) ج : لرسو .

(١) أبو قبيس هو أحد جبال مكة المشهورة ويشرف على المدينة من جهة الشرق . وحسب الروايات المتداولة كان هذا الجبل يطلق عليه ، قبل الإسلام ، اسم « الأمين » لأنه حفظ الحجر الأسود من الطوفان . وهو أحد الجبلين المعروفين باسم « الأخشبان » . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٠٢ ؛ ابن جبير ، الرحلة ، ص ٨٠

(٢) أنظر فيما بعد ص ٢٩ والهامش .

(٣) الشعب هو الوادي الصغير أو الطريق يخترق الجبال . وهو الإسم الذي أطلق على أزقة مكة والطرق التي تؤدي إليها . أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٢٩٦ . وعن شعب عمر وشعب علي أنظر الأزرقي ، ص ٤٧٩ ، ٤٨٦

(٤) هو الطريق الذي يقع مباشرة إلى جانب جبل «أبو قبيس» والذي يؤدي إلى الطريق الآخر المسمى «أجياد الكبير» . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٣٨ ؛ الأزرقي ، ص ٤٩٤ ؛ العبدري ، المخطوط ، ص ٩٣ – ا . وعن الإسم « أجياد » أنظر فيما بعد ص ٨

(٥) الأخشبان (ومفردها أخشب وهو الجبل الصعب أو الأرض الخشنة : ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٥٩ – ١٦٣ ؛ العبدري ، المخطوط ، ص ٩٢ – ب) هما جبلا مكة الشهيران : أبو قبيس وجبل الخندمة (الأزرقي ، ص ٤٣ ، ١٣٩ ، ٤٧٨ . وعن الخندمة قارن ص ٦) . وحسب ابن رسته (ص ٢٩) كان موقف إبراهيم الخليل بين هذين الجبلين حينما دعا أهل اليمن والشام والشرق والمغرب إلى الحج إلى مكة والمسجد الحرام . وقارن البكري ، المعجم ، ج ١ ص ٧٨ ؛ الاصطخري ص ١٧ ؛ ابن حوقل ، ص ٢٥ ؛ المقدسي ، ص ٧٧ .

ثم جبل الخَنْدَمة[1] وهو الجبل العالى المستعلى على أبى قبيس من ناحية الشرق ، وهو (ا) جبل أحمر محجر فيه صخرة كبيرة بيضاء كأنها معلقة تشبه الإنسان إذا نظرت إليها من البعد ، تراها من المسجد الحرام من باب السهميين (ب) الصغير . وفى ذلك الجبل تحصن أهل مكة يوم القرمطى (ج)[2]. وأسفل (د) من ذلك الجبل ، بينه وبين الجبل غار ، شعب على رضى الله عنه .

ثم الجبل الأبيض[3] الذى على الأبطح إلى باب مِنًى[4] ، ومن ذلك الجبل إلى الجبل الأحمر السور ، وجعل هنالك بابين من خشب مصفحين بالحديد ، وهما على المعلى (ر)[5] وهما المعروفان بباب منى . وعند هذا الباب آبار (س) بعيدة الرشا يستقى الناس منها ، وماؤها ليس بعذب

(ا) "وهو" ناقصة فى ب (ب) "السهميين" ناقصة فى ب. (ج) ج : القرموطى.
(د) ب : أسفل . (ر) ج : المعالى . (س) ب : أبيار .

(١) عن الخندمة أنظر الهامش السابق ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٤٦ ؛ البكرى ، المعجم ، ج ١ ص ٣١٩ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٩٣ – ا ؛ ابن الأثير ، ج ١ ص ١٨٨. وتقول الرواية إن اسم هذا الجبل مأخوذ من الفعل «خدم» وذلك أنه عندما فتح النبى مكة خرج مع المكيين رجل كان يسكن هذا الجبل ، ووعد امرأته بأن يعود لها بخادم من أسرى المسلمين . فأطلق على الجبل بعد انتصار المسلمين اسم الخندمة تندرا وذكرى لهذا الحدث (الأزرقى ص ٤٧٩) .

(٢) القرمطى المذكور هنا هو أبو طاهر سليمان بن أبى سعيد الجنابى الذى استولى على مكة (فى ٨ من ذى الحجة سنة ٣١٧ = ١٢ يناير سنة ٩٣٠) وأخذ الحجر الأسود إلى الأحساء . أنظر ابن الأثير ، ج٨ص ٣١٧ ؛ الفاسى ، ص ٢٤١ ؛ G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 49. eq. ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٢ ص ٨١٣ .

(٣) قارن الأزرقى ، ص ٤٧٩ ، ٤٩٠ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٠٩

(٤) تسمى نهاية أزقة مكة التى تؤدى إلى الأبطح (وهو الجزء المنخفض من منطقة مكة) الذى يشرف على موقع المسجد الحرام «أبواب المسجد الحرام» . وأحدها هو باب منى . وعن الآبار القريبة من هذا الباب أنظر الأزرقى ، ص ٤٧٩

(٥) المعلى هو الجزء المرتفع إلى جهة الشرق من مكة وهو الذى يشرف على الأجزاء المنخفضة المسماة بالمسفلة إلى جهة الغرب . العبدرى ، المخطوط ، ص ٩٢ – ب ؛ ابن جبير ، ص ١١٣ ؛ G.-Demombynes. Pèlerinage, p. 197 .